

تفسير ابن كثير

أمر تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة وقد تقدم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعة أسياف : سيف للمشركين { فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين { وسيف لكفار أهل الكتاب { قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون { وسيف للمنافقين { جاهد الكفار والمنافقين { وسيف للبغيظة { فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله { وهذا يقتضي أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق وهو اختيار ابن جرير .

وقال ابن مسعود في قوله تعالى : { جاهد الكفار والمنافقين { قال : بيده فإن لم يستطع فليكنه في وجهه وقال ابن عباس : أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان وأذهب الرفق عنهم وقال الضحاك : جاهد الكفار بالسيف واغلظ على المنافقين بالكلام وهو مجاهدتهم وعن مقاتل والربيع مثله وقال الحسن وقتادة مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم وقد يقال إنه لا منافاة بين هذه الأقوال لأنه تارة يؤاخذهم بهذا وتارة بهذا بحسب الأحوال والله أعلم وقوله : { يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم { قال قتادة : نزلت في عبد الله بن أبي وذلك أنه اقتتل رجلان جهني وأنصاري فعلا الجهني على الأنصاري فقال عبد الله للأنصار ألا تنصروا أخاكم ؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك وقال لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل إليه فسأله فجعل يحلف بالله ما قاله فأنزل الله فيه هذه الآية وروى إسماعيل بن إبراهيم بن عتبة عن عمه موسى بن عتبة قال : فحدثني عبد الله بن الفضل أنه سمع أنس بن مالك يقول : حزن علي من أصيب بالحرّة من قومي فكتب إلي زيد بن أرقم وبلغه شدة حزني يذكر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : [اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار] وشك ابن الفضل في أبناء الأنصار قال ابن الفضل : فسأل أنس بعض من كان عنده عن زيد بن أرقم فقال : هو الذي يقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : [أوفى الله بإذنه] قال : وذلك حين سمع رجلا من المنافقين يقول ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب : لئن كان صادقا فنحن شر من الحمير فقال زيد بن أرقم : فهو والله صادق ولأنت شر من الحمار ثم رفع ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجدده القائل

فأنزل الله هذه الآية تصديقا لزيد يعني قوله : { يحلفون بالله ما قالوا } الآية رواه البخاري في صحيحه عن إسماعيل بن أبي أويس عن إسماعيل بن إبراهيم بن عتبة - إلى قوله - هذا الذي أوفى الله له بإذنه ولعل ما بعده من قول موسى بن عتبة وقد رواه محمد بن فليح عن موسى بن عتبة بإسناده : ثم قال قال ابن شهاب فذكر ما بعده عن موسى عن ابن شهاب .

والمشهور في هذه القصة أنه كانت في غزوة بني المصطلق فلعل الراوي وهم في ذكر الآية وأراد أن يذكر غيرها فذكرها والله أعلم قال الأموي في مغازيه : حدثنا محمد بن إسحاق عن الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه عن جده قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذني قومي فقالوا : إنك امرؤ شاعر فإن شئت أن تعتذر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض العلة ثم يكون ذنبا تستغفر الله منه وذكر الحديث بطوله إلى أن قال : وكان ممن تخلف من المنافقين ونزل فيه القرآن منهم ممن كان مع النبي صلى الله عليه وسلم الجلوس بن سويد بن الصامت وكان على أم عمير بن سعد وكان عمير في حجره فلما نزل القرآن وذكرهم الله بما ذكر مما أنزل في المنافقين قال الجلوس : والله لئن كان هذا الرجل صادقا فيما يقول لنحن شر من الحمير ؟ فسمعها عمير بن سعد فقال : والله يا جلوس إنك لأحب الناس إلي وأحسنهم بلاء عندي وأعزهم علي أن يصله شيء يكرهه ولقد قلت مقالة لئن ذكرت لها لتفضحك ولئن كتمتها لتهلكني وإحداهما أهون علي من الأخرى فمشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له ما قال الجلوس فلما بلغ ذلك الجلوس خرج حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فحلف بالله ما قال ما قال عمير بن سعد ولقد كذب علي فأنزل الله D فيه { يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم } إلى آخر الآية فوقفه رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها فزعموا أن الجلوس تاب فحسنت توبته ونزع فأحسن النزوع .

هكذا جاء هذا مدرجا في الحديث متصلا به وكأنه والله أعلم من كلام ابن إسحاق نفسه لا من كلام كعب بن مالك وقال عروة بن الزبير : نزلت هذه الآية في الجلوس بن سويد بن الصامت أقبل هو وابن امرأته مصعب بن قباء فقال الجلوس : إن كان ما جاء به محمد حقا فنحن أشرف من حميرنا هذه التي نحن عليها فقال مصعب : أما والله يا عدو الله لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قلت فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم وخفت أن ينزل في القرآن أو تصيبني قارعة أو أن أخلط بخطيئته فقلت : يا رسول الله أقبلت أنا والجلوس من قباء فقال كذا وكذا ولولا مخافة أن أخلط بخطيئة أو تصيبني قارعة ما أخبرتك قال : فدعا الجلوس فقال [يا جلوس أقبلت الذي قاله مصعب ؟] فحلف فأنزل الله { يحلفون بالله ما قالوا } الآية وقال محمد بن إسحاق : كان الذي قال تلك المقالة فيما بلغني الجلوس بن سويد بن الصامت فرفعها عليه رجل كان في حجره يقال له عمير بن سعد فأنكرها فحلف بالله ما قالها فلما نزل فيه القرآن تاب ونزع وحسنت توبته فيما بلغني وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثني أيوب بن إسحاق بن إبراهيم حدثنا عبد

A [بن رجاء حدثنا إسرائيل عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ جالسا في ظل شجرة فقال : [إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم - بعيني الشيطان - فإذا جاء فلا تكلموه] فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله ﷺ فقال : [علام تشمني أنت وأصحابك ؟] فانطلق الرجل فجاءه بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم فأنزل A [D { يحلفون بالله ما قالوا } الآية وقوله { وهموا بما لم ينالوا } قيل أنزلت في الجلاس بن سويد وذلك أنه هم بقتل ابن امرأته حين قال لأخبرن رسول الله ﷺ وقيل في عبد الله بن أبي هم بقتل رسول الله ﷺ وقال السدي : نزلت في أناس أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبي وإن لم يرض رسول الله ﷺ وقد ورد أن نفرا من المنافقين هموا بالفتك بالنبي A وهو في غزوة تبوك في بعض تلك الليالي في حال السير وكانوا بضعة عشر رجلا قال الضحاك : ففيهم نزلت هذه الآية وذلك بين فيما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب دلائل النبوة من حديث محمد بن إسحاق عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن حذيفة بن اليمان B قال : كنت آخذا بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به وعمار يسوق الناقة أو أنا أسوقه وعمار يقوده حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا بآثني عشر راكبا قد اعترضوه فيها قال فأنبهت رسول الله ﷺ بهم فصرخ بهم فولوا مدبرين فقال لنا رسول الله ﷺ : [هل عرفتم القوم ؟] قلنا : لا يا رسول الله ﷺ قد كانوا متلثمين ولكننا قد عرفنا الركاب قال : [هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة وهل تدرون ما أرادوا ؟] قلنا : لا قال : [أرادوا أن يزاحموا رسول الله ﷺ في العقبة فيلقوه منها] قلنا : يا رسول الله ﷺ أفلا تبعث إلى عشائركم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم ؟ قال : [لا أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمدا قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله ﷺ بهم أقبل عليهم يقتلهم - ثم قال - اللهم ارمهم بالدبيلة] قلنا : يا رسول الله ﷺ وما الدبيلة ؟ قال : [شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك] وقال الإمام أحمد C : حدثنا يزيد أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل قال : لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أمر مناديا فنادى : إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عمار إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل فغشوا عمارا وهو يسوق برسول الله ﷺ فأقبل عمار B يضرب وجهه الرواحل فقال رسول الله ﷺ لحذيفة [قد قد] حتى هبط رسول الله ﷺ فلما هبط نزل ورجع عمار فقال يا عمار : [هل عرفت القوم ؟] قال : لقد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون قال [هل تدري ما أرادوا ؟] قال : لا ورسوله أعلم قال : [أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ - A - راحلته فيطرحوه] قال : فسأل عمار رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ فقال نشدتك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة ؟ قال : أربعة عشر رجلا فقال : إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر قال فعد رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا : والله ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ وما علمنا ما أراد القوم فقال عمار أشهد : أن الاثني عشر الباقيين حرب لله ولرسوله في الحياة

الدنيا ويوم يقوم الأشهاد وهكذا روى ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير نحو هذا وأن رسول الله ﷺ أمر أن يمشي الناس في بطن الوادي وصعد هو وحذيفة وعمار العقبة فتبعهم هؤلاء النفر الأزدلون وهم متلثمون فأرادوا سلوك العقبة فأطلع الله ﷺ على مرادهم رسول الله ﷺ A فأمروا حذيفة فرجع إليهم ف ضرب وجهه رواحلهم ففرغوا ورجعوا مقبوحين وأعلم رسول الله ﷺ A حذيفة وعماراً بأسمائهم وما كانوا هموا به من الفتك به صلوات الله ﷺ وسلامه عليه وأمرهما أن يكتما عليهما وكذا روى يونس بن بكير عن ابن إسحاق إلا أنه سمى جماعة منهم فاطمة أعلم . وكذا قد حكى في معجم الطبراني قاله البيهقي ويشهد لهذه القصة بالصحة ما رواه مسلم : حدثنا زهير بن حرب حدثنا أبو أحمد الكوفي حدثنا الوليد بن جميع حدثنا أبو الطفيل قال : كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس فقال : أنشدك بأبيكم كم كان أصحاب العقبة ؟ قال : فقال له القوم : أخبره إذ سألك ؟ فقال : كنا نخبر أنهم أربعة عشر فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر وأشهد بأبيكم أن اثني عشر منهم حرب ﷺ ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد وعذر ثلاثة قالوا : ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ A ولا علمنا بما أراد القوم ؟ وقد كان في حرة يمشي فقال : إن الماء قليل فلا يسبقني إليه أحد فوجد قوما قد سبقوه فلعنهم يومئذ وما رواه مسلم أيضا من حديث قتادة عن أبي نضرة عن قيس بن عباد عن عمار بن ياسر قال : أخبرني حذيفة عن النبي A أنه قال : [في أصحابي اثنا عشر منافقا لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط : ثمانية منهم تكفيكم الدبيلة سراج من نار تظهر بين أكتافهم حتى ينجم في صدورهم] ولهذا كان حذيفة يقال له صاحب السر الذي لا يعلمه غيره أي من تعيين جماعة من المنافقين وهم هؤلاء قد أطلعهم عليهم رسول الله ﷺ A دون غيره والله أعلم وقد ترجم الطبراني في مسند حذيفة تسمية أصحاب العقبة ثم روي عن علي بن عبد العزيز عن الزبير بن بكار أنه قال : هم معتب بن قشيرة ووديعة بن ثابت وجد بن عبد الله بن نبتل بن الحارث من بني عمرو بن عوف والحارث بن يزيد الطائي وأوس بن قيطي والحارث بن سويد وسعد بن زرارة وقيس بن فهد وسويد بن داعس من بني الحبلى وقيس بن عمرو بن سهل وزيد بن اللصيت وسلالة بن الحمام وهما من بني قينقاع أظهرهم الإسلام .

وقوله تعالى : { وما نقموا إلا أن أغناهم الله ﷻ ورسوله من فضله } أي وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله ﷻ أغناهم ببركته ويمن سعادته ولو تمت عليه السعادة لهداهم الله ﷻ لما جاء به كما قال A للأنصار : [ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله ﷻ بي وكنتم متفرقين فألفكم الله ﷻ بي وعالة فأغناكم الله ﷻ بي] كلما قال شيئا قالوا الله ﷻ ورسوله أمن وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب كقوله : { وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله ﷻ } الآية وقوله عليه السلام [ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيرا فأغناه الله ﷻ] ثم دعاهم الله ﷻ تبارك وتعالى إلى التوبة فقال { فإن يتوبوا يك

خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة { أي وإن يستمروا على طريقهم يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا أي بالقتل والهم والغم والآخرة أي بالعذاب والنكال والهوان والصغار } وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير { أي وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم لا يحصل لهم خيرا ولا يدفع عنهم شرا